رثاء المعري
في ديوان سقط الزند

المدرس الدكتور الاء عبدالعزيز هاشم
مديرية تربية محافظة البصرة

المستخلص:

يتناول البحث الرثاء عند المعرّي في ديوان سقط الزند وهو من الموضوعات الشعرية التي ابدع فيها المعرّي واجاد.

وكشفت نصوص الرثاء في ديوان سقط الزند عن نفسية المعرّي المتشائمة والحزينة، وعن مراحل تطور شعره ونضجه وانتقاله من مرحلة التكلف الى مرحلة النضج ورصانة الأسلوب.

تضمن البحث مقدمة تناولت مشكلة البحث واهميته وهدفه، كما اشتمل على مبحثين الأول: في رثاء الأهل، والثاني: في رثاء الأصدقاء، وخرج البحث بعد تحليل النصوص الشعرية بمجموعة من النتائج منها:

١.كانت نصوصه الشعرية في رثاء والده فيها طابع التكلف وعدم اتقان المعنى. اما نصوصه في رثاء والدته انتقل فيها الشاعر من طابع التكلف الذي بدأ يقل الى رصانة الأسلوب وإجادة المعنى.

٢.كانت نصوص المعرّي في رثاء اصدقائه نفائس ثمينة وينبوع صافي ينهل منها كل من احب الشعر العربي على اصوله القديمة، كما انها مثلت خلاصة تجارية في الحياة.

الكلمات المفتاحية: الرثاء، الأهل، الأصدقاء، فلسفة الموت.

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٤/٠٥/٢٧ **تاريخ القبول: ٢٠٢٤/٠٩/١٢**

Al-Ma'arri's Elegy in the Diwan *Saqt al-Zand*

Lect. Dr. Alaa Abdul-Aziz Hashim
Basrah Education Directorate

Abstract

The research delves into the theme of elegy in Al-Ma'arri's *Diwan Saqt al-Zand*, a poetic genre in which Al-Ma'arri demonstrated remarkable skill. The elegies within *Saqt al-Zand* not only reflect his melancholic and pessimistic outlook but also trace the evolution and maturation of his poetic style, as he moved from a more artificial approach to one marked by greater sophistication and depth.

The study begins with an introduction that outlines the research problem, its significance, and its objectives. It is then divided into two key sections: the first explores Al-Ma'arri's elegies for his family, while the second examines his elegies for friends. Through a detailed analysis of these poems, the study arrives at several notable conclusions:

1. In his elegies for his father, Al-Ma'arri's poetry exhibited a certain level of artificiality and lacked finesse in conveying deeper meaning. However, his elegies for his mother marked a shift toward a more polished style, where the language became more refined, and the meanings were expressed with greater clarity and emotion.

2. Al-Ma'arri's elegies for his friends are considered literary treasures, offering a pure and authentic expression of classical Arabic poetry. These poems not only reflect the essence of his poetic mastery but also encapsulate the wisdom and experiences he gained throughout his life.

Keywords: Elegy, Family, Friends, Philosophy of Death.

Received: 27/05/2024 **Accepted: 12/09/2024**

المقدمة

يعد الرثاء من الموضوعات التي كتب فيها الكثير من الشعراء ((لأنه تعبير عن خلجات قلب حزين، وفيه لوعة وحسرات، ولذلك فهو من الموضوعات القريبة إلى النفس))[١].

ونفس المعرّي (٣٦٣هـ - ٤٤٩هـ) المليئة بالأحزان، جعلته يكتب في غرض الرثاء أروع النصوص الشعرية، التي تركت بصماتها على مرّ التاريخ، كما عبر الرثاء عن نفسية المعرّي الحزينة والمتشائمة في الوقت ذاته، وبرهن عن محبته لكل من رثاهم بتلك النصوص الرائعة، لذا فان هذه النصوص ((تشكل أهمية كبيرة، ولها قيمة فنية أصيلة، من خلالها يبدو لنا المعرّي شاعراً ومفكراً، حيث تجد تداخلاً جدلياً وعفوياً في آن واحدة بين الفكر والفن))[٢].

ومن خلال الرثاء في ديوان سقط الزند يمكن دراسة نفسية المعرّي ومراحل تطور شعره في هذا الغرض من مرحلة عدم النضج والتقليد إلى مرحلة النضج والإبداع لذا يمكن تقسيم الرثاء عند المعرّي في ديوان سقط الزند إلى مبحثين:

١. رثاء الأهل
٢. رثاء الأصدقاء

المبحث الأول

رثاء الأهل

أمتاز رثاء الأهل عند المعرّي بالألم والحسرة واللوعة، فهناك ثلاث نصوص شعرية للمعرّي في رثاء أهله، واحدة في أبيه، واثنتين في أمه، عبرت هذه النصوص عن حزن المعرّي فحياته مليئة بـ ((الهموم والأحزان، وفلسفته المفعمة بالسخط على الوجود وما فيه تعدّانه للنبوغ في الرثاء))[٣].

وأول نص للمعرّي في هذا اللون من الرثاء كان في والده وفيه يقول[٤].

نقمتُ الرَّضا حَتّى على ضاحك المُزنِ فلا جادني إلا عبوسٌ من الدّجنِ

أبي حكمت فيه اللّيالي ولم تزلْ رماحُ المنايا قادراتٍ على الطّعنِ

مضى طاهر الجُثمانِ والنفّس والكرى وسُهدِ المَنى والجيبِ والذّيلِ والرُّدنِ

فالشاعر في بداية نصه الشعري ينكر على نفسه الضحك بل حتى على السحاب المبتسم، ليظهر حزنه على أبيه فهو يريد من الجميع وحتى السحاب أن تكون حزينة لموت والده، ثم صور لنا فكرة الموت بقوله (أبي حكمت فيه اللّيالي) فكل إنسان مصيره إلى الموت، ثم أخذ بعد ذلك في تعداد صفات والده فهو عفيف، نقي اليد واللسان، كما أمتاز بسلامة الصدر من الغل والحسد[٥].

إن هذه الصورة التي بدأ الشاعر بها نصه الشعري لم تكن موفقة، لأن السحاب الضاحك ليس أحق الأشياء بالرضا، و لا يكون انصرافه دليلاً على بلوغ أقصى منازل السخط، و لا السحاب العابس المظلم بأشد ما يصيب الناس من الشر، بل قد يكون السحاب خيراً حين تجود الأرض بما يكسوها من الزهر ألواناً، وأعزو ذلك إلى ان المعرّي أصيب بالعمى فلا يقدر جمال السحاب، والابتهاج بمنظره[٦].

ويذكر لنا المعرّي في نصه الشعري الذي يرثي فيه والده، أنه اتسم برجاحة العقل والحلم والهيبة والوقار مما جعله يتحاشى الزحام، فنراه يقول[٧]:

فيا ليت شِعري هل يخفُّ وقارُهُ إذا صار أحدٌ في القيامة كالعِهنِ

وهل يردُ الحوض الرّويّ مُبادرا مع النّاسِ أم يأبى الزحامَ فيستأني

في هذا النص الشعري إشارة إلى قوله تعالى ((وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ))[٨]. موضحاً ايمانه بالحساب بعد الموت[٩].

ويستمر الشاعر في الحديث عن الحساب بعد الموت وكأنّه في حالة شك، لذلك نراه يقول[١٠]:

طلبتُ يقيناً من جهينة عنهمُ ولن تُخبريني ياجُهينُ سِوى ظنّ

فإن تعهديني لا أزالُ مُسائلاً فإنيَّ لم أُعط الصحيح فاستغني

المعرّي هنا يريد معرفة ما صار إليه أهل القبور بعد الموت، وهو لم يجد سوى جهينة شخصية ورد ذكرها في مثل ((وعند جهينة الخبر اليقين))[١١].

وعبر المعرّي عن رقة قلبه وحرارة عاطفته تجاه والده، وعميق حزنه عليه بقوله[١٢]:

أمُرُّبربعٍ كُنت فِيهِ كأنّما أمُرُّمِن الاكرام بالحجروالرّكُنِ

نلاحظ حرارة العاطفة في هذا النص، فقد شبه الشاعر المكان الذي كان فيه والده بالأماكن المقدسة الحجر والركن، كما استخدم اسلوب التكرار من خلال تكراره لكلمة (أمرُّ) ليؤكد المعنى في ذهن المتلقي عما يشعر به من الحزن والألم.

وختم المعرّي نصه الشعري بقوله[١٣]:

وبعدك لا يهوى الفُؤادُ مسرّةً وإن خان في وصل السُّرور فلا يهنى

المتلقي لهذا النص يرى انه آخر بيت في النص، فالشاعر يرى ان السرور والهناء لا طريق لهما الى قلبه بعد موت والده. وفي هذا دلالة على الوفاء له، وعلى العلاقة الوثيقة التي تربط بينهما.

ونرى ان المعرّي أحسن خاتمة نصه الشعري، لأن الخاتمة توازي المقدمة ((واما الانتهاء فهو قاعدة القصيدة، وآخر ما يبقى منها في الأسماع، وسبيله ان يكون محكماً، لا تكمن الزيادة عليه، و لا يأتي بعده أحسن منه))[١٤].

ويرى الدكتور طه حسين أن المعرّي في هذا النص لم تكتمل لديه الأدوات الفنية، ورثى والده طفلاً لم ينضج عقله، ولم تتكون فلسفته، و لم يظهر نبوغه، فأخطأته الإجادة، وليس فيها دلالة على الحزن الذي ملك قلب الشاعر[١٥].

وهناك من يرى أن هذا النص لا يمثل ((صوت فتى مراهق بل صوت رجل حكيم مجرب بلاء الدنيا... وأثخنته الجراح، وأطال التأمل في لغز الوجود))[١٦].

ويبدو لي أن نص المعرّي عبر عن عاطفة صادقة منبعثة من قلب حزين متفطر على موت والده.

ورثى المعرّي والدته بنصين الأول يقول فيه[١٧]:

سمعتُ نعيّها صمّي صَمامِ وان قال العواذلُ لا هَمَامِ

وأمّتني الى الأجداثِ أُمٌّ يعزُّعليّ أن سارت أمامي

وأكبران يرثيها لساني بلفظٍ سالك طُرق الطّعامِ

الشاعر بدأ نصه الشعري بالتعبير عن هول الفاجعة التي ألمت به، فهو يتمنى لو كان أصم حتى لا يسمع بخبر وفاة أمه، وان كان العواذل لا يعطونه العذر لذلك، كما أنه كشف معاني الحزن في نصه، فيقول إن أمه سبقته في الموت، وكان يريد أن يسبقها إلى ذلك هو، لذلك فهي أكبر من يرثيها لسانه بلفظ يخرج من الفم.

وفي هذا النص تمنى الشاعر أن يصوغ الشهب شعراً، فيجعله رثاءً لأمه ثم بين أن موتها كان في كهولته، ولكنه لفقدها وهول المفاجأة ظن إنّه رضيع فارقته أمه، فنراه يقول:[١٨]

مضتْ وقد اكتهلتُ وخِلتُ أنّي رضيعٌ ما بلغت مدى الفطامِ

فيا ركْبَ المُنونِ اما رسولٌ يُبلّغُ رُوحها أرج السَّلامِ

المتلقي لهذا النص يشعر بعظيم ألم المعرّي لفقد أمه، وهو يطلب من الذين ركبوا الموت إبلاغ سلامه الطيب لأمه.

ويستمر الشاعر في وصف معاناته، ويستدعي الحمام التي تنوح، ولكنه لم يجد في ذلك منفذاً شافياً لألمه وحزنه، بل إن الذي يروي الغليل هو اللقاء، فسأل عن ذلك بقوله[١٩]:

سألت متى اللقاءُ فقِيل حتّى يقوم الهامُدون من الرَّجامِ

وفي هذا النص نلمس عمق العلاقة القوية التي تربطه بأمه، وعندما تيقن ان اللقاء يكون يوم البعث، تمنى أن تقوم القيامة ليكون اللقاء بينه وبين أمه، فنراه يقول: [٢٠].

فليت أَذِين يوم الحْشرِ نادى فأجشهت الرّمَامُ الى الرِّمامِ

أي أن مصير الإنسانية جمعاء، كله إلى الزوال، وبث في هذا النص آراءه في الزمان و ما يفعله بالناس، وإن الكل هالك لا محالة، كما تحدث عن الانبياء والقبائل فهو يستخدم ثقافته المتنوعة، وعدد في هذا النص فضائل والدته عليه، نراه يقول: [٢١].

ولوْ أنّ النّخيلَ شكِيرُ جسمِي ثناهُ حَمْلُ أنعُمكِ الجسَامِ

كفاني رِيُّها من كُلِّ رِيٍّ إلى أنْ كدْتُ أُحسبُ في النّعامِ

المعرّي هنا يعدد أنعم أمه عليه، بل حتى لو كان جسمه عظيماً لاثقله حمل هذه الفضائل المتعددة والمتوالية، لذلك هو يعجز عن شكرها.

وختم الشاعر نصه بالدعاء لوالدته بالسقيا، وهذه من عادة العرب لأن الناس يألفون المواضع الخصبة، ويرحلون عن البلاد المجدبة[٢٢]، فنراه يقول: [٢٣].

سقتكِ الغادياتُ فما جَهَامٌ أطلّ على مَحَلَّك بالجهامِ

وقطرٌ كالبحارِ فلستُ أرضى بقطر صاب من خلل الغمامِ

فهو يدعو بالغيث الغزير على قبر أمه، ليكون مألوفاً ومعروفاً لدى الجميع، وفي هذا النص الشعري إشارة إلى قوله تعالى ((أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِه))[٢٤].

وله نص ثاني في رثاء والدته، وفيه يقول: [٢٥]

خُلُو فُؤادي بالمودّة إخْلَالُ و إبلاءُ جسمي طِلا بكِ إبلالُ

ولي حاجَةٌ عند المنيّةِ فتكُهَا بُروحي والاهواءُ مُذْ كُنَّ أهْوَالُ

إذا متُّ لم أحفلْ أبا الشّام حُفرةٌ حوتني أمْ ريمٌ برِيْمانَ مُنهالُ

نلاحظ ان المعرّي يعبر عن عمق حزنه على أمه، فهو يتمنى الموت واللحاق بها بل لا يبالي، اين يدفن، وحتى يؤكد هذا المعنى في ذهن المتلقي لجأ الى الجناس الذي هو أحد فنون البديع، فجانس بين (خلو – إخلال) و (إبلاء – إبلال) ليثري النغم الداخلي للنص الشعري من جهة، وإغنائه بدلالات مختلفة يساهم في عمله، ذلك التغاير المعنوي بين الألفاظ المتجانسة من جهة اخرى.

وعبر الشاعر في هذا النص عن لوعته لفقد والدته، وأنه أصبح كالطفل الرضيع بعد موتها، على الرغم من كبر سنه عند فقدها، وكيف رأى في نومه أنه أصيب بناجذ فكان تأويله لهذا الحلم بموت امه، فأنكر على الأحلام أن تشبه والدته التي لا نظير لها في هذه الدنيا.

وختم نصه الشعري في رثاء والدته بعجزه عن نسيانها والسلو عنها في يقظة أو منام[٢٦]، فيقول: [٢٧]

إذا نْمتُ لاقيتُ الاحِبّةَ بّعْدَما طوتهُمْ شُهُورٌفي التُّرابِ وأحوالُ

نلاحظ أن الشاعر جعل من النوم وسيلة له، ليحضى بلقاء أمه، بعد أن يئس من رجوعها في الحقيقة.

ويبدو أن رثاء المعرّي لوالده أمتاز بعدم رصانة الأسلوب، أما في رثاؤه لوالدته نلاحظ ابتعاده عن التكلف، واتجاهه الى رصانة الأسلوب واتقان المعنى.[٢٨].

المبحث الثاني

رثاء الأصدقاء

الأصدقاء هم سلوة الإنسان بعد الأهل، لذلك حرص المعرّي على العلاقة التي تربطه بأصدقائه، وللمعرّي عدة نصوص شعرية في رثاء الأصدقاء، ومن تلك النصوص رثاؤه لأبي إبراهيم العلوي بدأها بمدح الميت وأولاده، فنراه يقول: [٢٩]

بني الحسب الوضّاحِ والشّرف الجَمَّ لساني إنْ لمْ أرث والدكُمْ خَصْمي

فصديقه من عائلة ذات حسب ونسب ومجد وكرم، كيف لا وهو ينتمي الى البيت العلوي الشريف، لذلك يقول أن لسانه خصمه إن لم يرث والدكم.

وفي هذا النص يشكو الشاعر الزمان، ونوائبه وليس هناك مصيبة مثل مصيبة فقد الشريف محمد، لذلك نراه يقول: [٣٠]

ولامْثَلْ فْقَدان الشّريف محمد رزيَّة خطبٍ او جناية ذي جُرْمِ

فيا دافنِيه في الثّرى إنّ لحده مَقرُّالثُّريّا فادفِنُوهُ على علمِ

فالشاعر لم يجد فاجعة أقوى من فقده هذا الصديق العزيز، ثم يصف قبره أنه ليس على الأرض، وإنما مكانه الثريا في السماء، واستخدام الشاعر هنا أسلوب التكرار (دافنيه – فادفنوه) ليكشف لنا عن الجوانب النفسية والعاطفية المسيطرة عليه ((فالتكرار يسلط الضوء على نقطة حسّاسة في العبارة ويكشف عن أهتمام المتكلم بها))[٣١].

ثم يأخذ بعد ذلك المعرّي في تعداد مناقب صديقه، فهو شجاع يمتاز بالفروسية والقوة والحلم والعفاف، ثم عزى أولاده ومدحهم بالشجاعة والكرم، فنراه يقول: [٣٢]

فهذا وقد كان الشريفُ أبُوهُمُ أميرالمعالي فارس النثروالنظمِ

فالشاعر يرى أن أولاد الميت فرسان الكلام مثل والدهم.

وفي هذا النص يذكر المعرّي مرقد الإمام علي (عليه السلام) في الغري وإن جبريل يتقرب بروحه للنبي (صلى الله عليه وآله) ولفاطمة (عليها السلام)، ثم يختم النص بترجي فنراه يقول[٣٣]:

لعلّك في يوم القيامةِ ذاكري فتسأل ربّي أن يُخفَّف مِنْ إِثْمي

وفي هذا النص دلالة على صحة إعتقاد المعرّي، ومعرفته بشفاعة الرسول (صلى الله عليه وآله)، وهذا ما أكده الخوارزمي بقوله ((هذا البيت يشهد لقائله بصفاء الاعتقاد، وحسن الإيمان))[٣٤].

وهناك من يرى ان هذا النص الرثائي يخلو من المتانة والحزن معاً[٣٥].

ورثى أبا حمزة الحسن بن عبدالله التنوخي، بدأها بمقدمة رائعة، وفيها يقول[٣٦]:

غَيْرُمُجدٍ في ملّتي واعتقادي نَوْحُ باكٍ ولا ترنُّمُ شادي

وشبيهٌ صوتُ النّعيّ إذا قيـ سَ بصوتِ البشيرفي كُلِّ نادي

ابكتْ تِلكُمُ الحمامَةُ أم غنّـ تْ على فرعِ غُصنها الميّادِ

يبدا الشاعر نصه في معنى يحيل الى التضاد بين الحياة والموت، وبين نوح الباكي وترنم الشادي، وهذه الأضداد هي ليست في الحقيقة متناقضة كل التناقض، وإنما هي متساوية في التأثر والتأثير لدى الشاعر ثم يؤكد هذا المعنى فصوت النعي الحزين يشبه ويساوي صوت البشير، صوت الفرح والتفاؤل، ويستمر الشاعر في اظهار هذه المتضادات، فيستفهم في استغراب عن صوت الحمامة التي يرى فيها الناس الحزن مرة والفرح مرات، ولكن المعرّي لا يكترث لهذا الصوت فغنائها وبكائها سيان لديه.

ثم ينتقل في النص بعد ذلك، ليعبر عن فلسفته في الحياة، وان مصير كل انسان في هذه الحياة الى الموت، فنراه يقول[٣٧]:

صاح هذي قُبُورنا تملأ الرُّحْـ بَ فأين القُبورُمن عَهْدِ عَادِ

خفَّف الوَطْء ما أظنُّ أديم الـ أرضِ إلا من هذه الاجسادِ

وقبيحٌ بنا وإنْ قَدُمَ العَهْ ـدُ هوانُ الآباءِ والأجدادِ

رُبّ لحدٍ قد صارُلحداً مراراً ضاحكٍ مِنْ تزاحم الأضدادِ

ودفينٍ على بقايا دفينٍ في طويلِ الأزمان والآبادِ

فالسؤال الذي طرحه الشاعر في بدء النص، نجد جوابه هنا فقد انتقل إلى حياة أخرى تلك الحياة الباقية الخالدة، عندما قرر منادياً (هذي قبورنا تملأ الرحب) مدللاً أن مصير الإنسان إلى الموت، ومن لم يصدق فلينظر الى تلك القبور التي سكنتها رفات البشر من عهد قديم عهد عاد، ثم يذكر أن تراب الأرض متكون من هذه الاجساد التي امتزجت بالتراب الذي خلقت منه وهي محاولة من الشاعر، أن يرجع هذه الرّفات الى اصلها الذي انشئت منه، والحقيقة أن هذه الأبيات تجسد فلسفته في الحياة والموت، ويستمر الشاعر في إبراز فلسفته، فنراه يقول[٣٨]:

فاسأل الفرقدين عمّن أحَسَّا من قبيلٍ و آنسا من بلادِ

كم اقاما على زوالِ نهارٍ و انارا لُمدلجٍ في سَوادِ

تعبٌ كُلُّها الحياةَ ما أعـ ـجَبُ إلاّ من راغبٍ في ازديادِ

فالشاعر يطلب ان نسأل الفرقدين على حالة الفناء والتحول من حال إلى حال، لأنهم ((كانوا يصفون الفرقدين بطول الصحبة ودوام الألفة. وقد أكثروا من ذلك حتى صار عندهم كالمثل))[٣٩]. فإذن هناك عملية فناء وتحول، وهناك شواهد خالدة على هذه العملية لذلك يتعجب من الانسان الذي يطلب المزيد وحياته الى الفناء الذي لا محالة منه، ويؤكد هذه النظرة بقوله[٤٠]:

إن حُزناً في ساعة الفوت أضعا فُ سُرورٍفي ساعةِ الميلادِ

خُلق النّاس للبقاءِ فضلّتْ أمّةٌ يحسبونهم للنفادِ

إنّما يُنقُلونَ مِنْ دارِلأعمْا لٍ الى دارِشقوةٍ أورشادِ

يؤكد المعرّي هنا على قضية التناقض بين الموت والحياة أو الموت والميلاد، فالميلاد يبعث السرور والبهجة في النفس، لكن الموت يبعث اضعافاً من الحزن والأسى، لذا فهو يرى لا جدوى من الفرح والحزن، وإذا ما بدت هذه الاشياء للمتلقي متضادة، فهي في حقيقة أمرها متساوية.

كما يؤكد أن الإنسان ينقل بعد الموت من دار الدنيا أما الى دار شقاء (جهنم) أو الى دار الرشاد (الجنة)، فشعره هذا ((يدل على التوحيد الصريح والاعتقاد الصحيح))[٤١].

أن بعض العلماء والحكماء عرفوا الحياة بأنها حركة، وعرفوا الحركة بأنها تعب، فألف ابو العلاء المعرّي من هاتين المقدمتين قياساً منطقياً من الشكل الأول، وكانت نتيجة الحياة تعب، وأن فرح الناس في الساعة التي يولد فيها المولود لايعادل لحظة حزنهم عليه عند موته، ولقد أبدع وأوجز فاعجز في إفراغ المعاني[٤٢].

ويمدح الشاعر المرثي من خلال تعداد مناقبه وصفاته الكريمة، فهو فقيه وخطيب وراوي للحديث، ومكتشف للحقائق العلمية، وزاهد في الدنيا، فنراه يقول[٤٣]:

قصد الدّهرُ من أبي حمزة الأ ... ابِ مَوْلى حجاً وخَدنَ اقتصادِ

وفقيهاً أفكارُهُ شدن للنُّع ... مانِ ما لَمْ يشدهُ شِعْرُزيادِ

فالعراقيُّ بعده للحجاز ... يّ قليل الخلافِ سهلُ القيادِ

ويستمر الشاعر في النص الشعري في إظهار حزنه على الميت، إلى أن يختم النص ببيت فيه من الحكمة الكثير، فنراه يقول[٤٤]:

واللّبِيبُ اللّبِيبُ من ليس ... يغترّبكونٍ مصيرهُ لفسادِ

نلاحظ أن المعرّي استخدم أسلوب التكرار (اللّبيب) ليؤكد المعنى الذي أراده في ذهن المتلقي، ويعلق أحد الشراح على هذا النص بقوله ((هذا البيت بظاهره له معنى، وبباطنه له معنى آخر))[٤٥].

ويرى الدكتور طه حسين ((أن العرب لم ينظموا في جاهليتهم وإسلامهم، ولافي بداوتهم وحضارتهم، قصيدة تبلغ مبلغ هذه القصيدة في حسن الرثاء))[٤٦]. بل ((إنك لا تكاد تقرأ رثاء أبي حمزة، حتى يتمثل ابا العلاء بين يديك، ينشدك هذه القصيدة بصوت الحزين المطمئن، صوت يمثل حزناً قد فطر قلب الشاعر، وصدع كبده، واطمئناناً قد منعه من إظهار الجزع الذي يذهب بوقار الفيلسوف))[٤٧].

في حين يرى أحد الباحثين ((أن هذه القصيدة بمجموعها ومن جميع وجوهها هي فلتة من فلتات الدهر، ونادرة من مقلدات الشعر، وأن صاحبها أتى فيها بما لم تستطعه الأوائل، ولم يتشق غباره فيه الأواخر))[٤٨].

والحقيقة إن هذا النص الرثائي من أجمل ما كتب المعرّي، بل أنه من النصوص التي كُتب لها الخلود في سماء الشعر العربي.

وللمعرّي نص في رثاء جعفر بن علي، بدأ نصه بالحديث عن الصبر على الموت وعدم الجزع، بقوله[٤٩]:

أحسنُ بالواجدِ مِنْ وجدِهِ ... صبرٌيُعيدُ النّارفي زَندهِ

ومَنْ أبى في الرُّزء إلاّ الأسى كان بُكاهُ مُنتَهى جَهْدِهِ

فليَذْرف الجْفنُ على جعفرٍ إذ كان لم يَفتحْ على نِدِّهِ

فالشاعر يرى أن الجزع لا ينفع عند المصيبة، وأن الصبر هو الحل الجميل، لذلك ومن يريد أن يجزع فليس أمامه إلا البكاء، ثم يذكر الشاعر اسم المرثي (جعفر)، ويطلب من عينه أن تبكي عليه وفي هذا دلالة على معزته له.

ثم ينتقل الشاعر الى ذكر مناقب جعفر وأنها لا تعرف إلا إذا قيست الى ضدها، فنراه يقول[٥٠]:

والشّيءُ لا يكثرُ مُدّاحهُ إلا إذا قيس إلى ضدِّهِ

لولا غضى نجدٍ وقُلاّمُه لم يُشن بالطّيبِ على رندهِ

فالمعرّي يرى أن الإنسان تعرف أخلاقه وصفاته الكريمة، مثلما يعرف النبات الطيب من غيره.

وفي هذا النص استعرض المعرّي آراءه في ذم الدنيا والزهد فيها، وإن مصير الناس كلهم مهما طال بهم العمر الى الموت الذي لابد منه، كما عدد صفات المرثي في النص، والتفت الى المعزى ليسليه ويهون عليه مصابه، فنراه يقول[٥١]:

فيا أخا المفْقُودِ في خمسةٍ كالشُّهب ما سلّاك عن فَقْدهِ

جاءك هذا الحُزن مستجدياً أجرك في الصّبر فلا تجْدهِ

سَلِّمْ الى اللهِ فكُلُّ الّذي ساءك أو سرّك من عندهِ

المعرّي أراد هنا التخفيف من حزن أخ المفقود، وان السلوة له في أولاد أخيه، وان الصبر هو المخفف لتلك الأحزان العميقة الكامنة في النفوس، وان هذا المصاب من عند الله تعالى، ونجد الشاعر استخدم هنا أسلوب الطباق (ساءك – سرّك) لأن الطباق يعد ((نوعاً من انواع التفنن في طريق ترديد الأصوات في الكلام ليكون له نغم وموسيقى))[٥٢].

ويستمر الشاعر في نصه بالتحدث عن أحوال الميت وأنه في رحمة الله الواسعة، وقد أبدع المعرّي في طرح هذه المعاني فأجاد واتقن، وختم نصه بالدعاء لأخ المفقود بطول العمر له ولأولاد أخيه بقوله[٥٣]:

لا أوحشت دارُكَ مِنْ شمسَها ولا خَلَا غابُكَ مِنْ أُسْدهِ

أيّ أنت في دارك مثل الشمس، فلا غيبك الله عنها، وهذا الدعاء يبعث الارتياح والاطمئنان في نفس المتلقي.

ورثاء المعرّي لجعفر بن علي يعد ((عقد نفيس، جمع من عقائل الحكم والامثال، وطرائف المقاصد، ونوادر الصناعة الشعرية ما تقصر عنه يد كل متطاول. ففيها الفاظ تشبه النسيم لطافة ورقة، مع ايضاح المعنى، والوفاء بالغرض.... وجمعت الى إحكام الوصف جمال الديباجة، وحسن النغمة، فهي تنحدر إلى قرارات النفوس انحدار الماء، وتدخل الآذان بلا استئذان، بل تطيبها الأسماع، وتجتذبها النفوس))[٥٤].

والحقيقة أن رثاء المعرّي لجعفر بن علي امتاز بالعذوبة والرقة، كما أنه نص سريع التأثير في المتلقي، وعبر عن فلسفة الشاعر في الحياة.

واتفق مع الدكتور طه حسين في رؤيته أن المعرّي في رثائه لأبي حمزة وجعفر بن علي أجاد في فن الرثاء... وأنه بزّ بهما شعراء الرثاء جميعاً في الجاهلية والإسلام[٥٥]. فقد كان شعره ينبوعاً صافياً ينهل منه كل من أحبّ الشعر العربي على أصوله القديمة المطعمة برونق الحضارة، لذلك حاز على إعجاب الناس ونال تقدير العديد من النقاد.

نتائج البحث

- عبرت نصوص المعرّي في الرثاء عن مراحل تطور شعره ونضجه فقد كانت نصوصه في رثاء والده فيها طابع التكلف واضح، وعدم اتقان المعنى، أما في نصوصه في رثاء والدته مثلت عملية انتقال الشاعر من طابع التكلف فقد بدأ يقل، وأسلوبه أخذ في الرصانة وإتقان المعنى.
- أما نصوصه في الرثاء لأبي حمزة وجعفر بن علي، تمثل غرر شعره في الرثاء، فهي نصوص نفيسة امتازت بالنضج ورصانة الأسلوب.
- نهج المعرّي في رثائه، منهجاً جديداً أو مغايراً لكثير من الشعراء، فهو بعد موت والده وأمه، تحول الرثاء عنده إلى كره للحياة، وتفضيل للموت، ونصوص الرثاء للمعرّي في ديوان سقط الزند كلها تدور حول هذه الفلسفة.
- مثلت نصوص الرثاء خلاصة تجاربه في الحياة، فبث فيها الكثير من حكمه التي جاءت متسلسلة مع المعاني التي أراد تأكيدها في ذهن المتلقي.
- كثيراً ما يميل المعرّي في نصوص الرثاء إلى الاستطراد، ثم يعود بعد ذلك إلى ذكر مناقب المرثي.
- حرص الشاعر على استخدام الرموز في رثائه كالحمامة والغراب والسيف والرمح لتجسد فلسفة الحياة والموت.
- استخدم المعرّي الجناس والتكرار والطباق والتصريع في نصوصه الشعرية ليثري النغم الداخلي لها، لتكون أكثر تأثيراً في المتلقي.
- بلغت نصوص المعرّي في الرثاء في ديوان سقط الزند سبع نصوص ثلاث منها في الأهل، وأربع في الأصدقاء.

الهوامش

١. الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، يحيى الجبوري: ١٩٥

٢. ديوان سقط الزند دراسة موضوعية وفنية د. نهلة محمد حسن: ١، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب – جامعة البصرة ١٩٩٧م.

٣. تجديد ذكرى أبي العلاء، د. طه حسين: ١٩٨

٤. شروح سقط الزند: ٩٠٧/٢-٩٠٩

٥. ينظر: الجامع في أخبار أبي العلاء المعرّي وآثاره، محمد سليم الجندي: ١٠٨٨/٢، وانظر: ابو العلاء المعرّي د. عائشة عبدالرحمن: ١٩

٦. ينظر: تجديد ذكرى أبي العلاء د. طه حسين: ١٢١

٧. شروح سقط الزند: ٩١١/٢

٨. سورة القارعة: الآية (٥)

٩. ينظر: ديوان سقط الزند دراسة موضوعية وفنية د. نهلة محمد حسن (مصدر سابق): ١٦

١٠. شروح سقط الزند: ٩٢٥/٢-٩٢٧

١١. مجمع الامثال: ٤٦٤/١-٤٦٥، وأنظر: شروح سقط الزند: ٩٢٧/٢

١٢. شروح سقط الزند:: ٩٢٩/٢

١٣. م. ن: ٩٤١/٢

١٤. العمدة: ٢٣٩/١

١٥. ينظر: تجديد ذكرى أبي العلاء، د. طه حسين: ١٢٣، ١٩٨

١٦. نقلاً عن ديوان سقط الزند دراسة موضوعية وفنية د. نهلة محمد (مصدر سابق): ١٥

١٧. شروح سقط الزند: ١٤١٣/٤-١٤١٧، وأنظر: تعريف القدماء بأبي العلاء: ٢٣٤

١٨. م. ن: ١٤٢٠/٤

١٩. م. ن: ١٤٢٨/٤

٢٠. م. ن: ١٤٣١/٤

٢١. م. ن: ١٤٧١/٤-١٤٧٢

٢٢. ينظر: م. ن: ١٤٧٥/٤

٢٣. م. ن: الصفحة نفسها

٢٤. سورة النور: الآية (٤٣)

٢٥. شروح سقط الزند: ١٦٨٥/٤-١٦٨٦

٢٦. ينظر: ابو العلاء المعرّي، د. عائشة عبدالرحمن: ٢٣

٢٧. شروح سقط الزند: ٨٦٩١/٤

٢٨. ينظر: تجديد ذكرى ابي العلاء د. طه حسين: ١٨٣-١٨٨، وأنظر: لغة الشعر عند المعرّي د. زهير غازي زاهد: ١٤

٢٩. شروح سقط الزند: ٩٤٩/٣

٣٠. م. ن: ٩٥٠/٣-٩٥١، وانظر: تعريف القدماء بأبي العلاء: ٢٣٤

٣١. قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة: ٢٤٠

٣٢. شروح سقط الزند: ٩٦٥/٣

٣٣. م. ن: ٩٧٠/٣

٣٤. م. ن: الصفحة نفسها

٣٥. تجديد ذكرى ابي العلاء، د. طه حسين: ١٩٩

٣٦. شروح سقط الزند: ٣/٩٧١-٩٧٢، وأنظر: تعريف القدماء بأبي العلاء: ٢٣٥، وانظر: ابو العلاء المعرّي حياته شعره، سمير الصارم: ٤٧

٣٧. م. ن: ٣/٩٧٤-٩٧٦

٣٨. م. ن: ٣/٩٧٧

٣٩. م. ن: الصفحة نفسها

٤٠. م. ن: ٣/٩٧٨-٩٧٩

٤١. تعريف القدماء بأبي العلاء: ٤١٩

٤٢. ينظر: الجامع في أخبار ابي العلاء المعرّي وآثاره محمد سليم الجندي: ٢/١٠٧٣

٤٣. شرح سقط الزند: ٣/٩٨٥-٩٨٧

٤٤. م. ن: ٣/١٠٠٥

٤٥. م. ن: الصفحة نفسها

٤٦. تجديد ذكرى ابي العلاء، د. طه حسين: ١٩٩

٤٧. م. ن: الصفحة نفسها

٤٨. الجامع في اخبار ابي العلاء المعرّي وآثاره محمد سليم الجندي: ٢/١٠٧٧

٤٩. شروح سقط الزند: ٣/١٠٠٦-١٠٠٧

٥٠. م. ن: ٣/١٠٠٨

٥١. م. ن: ٣/١٠٢٥-١٠٢٦

٥٢. المرشد الى فهم اشعار العرب عبدالله الطيب: ٢/٦٩٣

٥٣. شروح سقط الزند: ٣/١٠٢٧

٥٤. الجامع في اخبار ابي العلاء المعرّي وآثاره محمد سليم الجندي: ٢/١٠٧٧

٥٥. ينظر: تجديد ذكرى ابي العلاء د. طه حسين: ٢٠١

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- ابو العلاء المعرّي، الدكتورة عائشة عبدالرحمن بنت الشاطئ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والإنباء والنشر – الدار المصرية للتأليف والترجمة(د. ت).
- ابو العلاء المعرّي حياته – شعره، سمير الصارم، دار كرم للطباعة والنشر، دمشق – سوريا (د. ت).
- تجديد ذكرى ابي العلاء، الدكتور طه حسين، ط٦، دار المعارف – مصر ١٩٦٣م.
- تعريف القدماء بأبي العلاء، جمع وتحقيق الأساتذة مصطفى السقا، عبدالرحيم محمود، عبدالسلام هارون، إبراهيم الابياري، حامد عبدالمجيد، بإشراف الأستاذ الدكتور طه حسين، ط٣ – المجلس الأعلى للثقافة – المكتبة العربية – مطابع الهيئة المصرية – دار الكتب ١٩٤٤م.
- الجامع في اخبار ابي العلاء المعرّي وآثاره، محمد سليم الجندي، علق عليه وأشرف على طبعه عبدالهادي هاشم، مطبوعات المجمع العلمي العربي – دمشق ١٩٦٤م.

- شروح سقط الزند، تحقيق الأساتذة مصطفى السقا، عبدالرحيم محمود، عبدالسلام هارون، إبراهيم الابياري، حامد عبدالمجيد، بإشراف الأستاذ الدكتور طه حسين، ط٤، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية – القاهرة ٢٠٠٢م.
- الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، يحيى الجبوري،دار التربية، بغداد ١٩٧٢م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (٣٩٠هـ - ٤٥٦هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، ط٥، دار الجيل – بيروت – لبنان ١٩٨١م.
- الفن ومذاهبه في الشعر العربي، د. شوقي ضيف، مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٧٦م.
- قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، ط١، منشورات دار الآداب – بيروت ١٩٦٢م.
- لغة الشعر عند المعرّي دراسة لغوية فنية في سقط الزند، د. زهير غازي زاهد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٩م.
- مجمع الأمثال، لأبي الفضل احمد بن محمد بن احمد بن إبراهيم الميداني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، المكتبة العصرية – صيدا – بيروت – لبنان ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.
- المرشد الى فهم أشعار العرب وصناعتها، عبدالله الطيب، ط٢، دار الفكر – بيروت – لبنان ١٩٧٠م.

الرسائل الجامعية

- ديوان سقط الزند دراسة موضوعية وفنية، د. نهلة محمد حسن عبدالصمد، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب – جامعة البصرة ١٩٩٧م.